له مادة سوى الحياة نفسها ، وليس له سبب بعد ذلك سوى وضوح بصيرة الحى ، هذا السأم المطلق ليس فى ذاته إلا الحياة عارية تماماً ، إذا نظرت إلى نفسها بوضوح »(١) .

والواقع أننا مهما حاولنا أن نجعل حياتنا مليئة خصبة ، فلا بد من أن تجىء علينا لحظات نستشعر فيها العوز والخلاء ، وبالتالى السأم والملال . وإذا كان من شأن الفعل الذى يتحقق فى « الآن » L'instant أن ينسينا الزمان ، فإن من شأن الملل الذى يقترن بالقلق أن يزيد من حدة شعورنا بالزمان . ومعنى هذا أننا — كما لاحظ شوبنهور — قلما نشعر بالزمان فى لحظات اللهو والسرور ، وإنما نحن نشعر به على وجه الخصوص فى لحظات الضجر والألم والملل . وحينما يستبد الملل بالنفس البشرية ، فهنالك يشعر الإنسان بالخلاء ، والخواء ، والضجر ، والتبرم ، وضيق الصدر ، وعدم الاكتراث ! وليس أشق على الإنسان من أن يصارع الملل ، فإن الصراع ضد الملل هو صراع ضد الزمان نفسه ، فضلا عن أنه كثيرا ما يكون الملل غير ذى موضوع !(٢) ألا يشعر المرء أحيانا بسأم غريب لا يعرف مصدره ، ولا يقوى على صده ، فلا يجد بداً من أن يستسلم لذلك العذاب النفسى الذى لا موضوع له سوى الحياة نفسها ؟ وإذن أفلا يحق لنا أن نقول إن الزمان بما فيه من صيرورة ورتابة وتكرار ، هو الذى يجعل من « السأم » جزءا لا يتجزأ من صميم وجودنا ؟

٢٠ — فإذا ما تساءلنا الآن عن التجربة الوجودية العميقة التى ينكشف لنا من خلالها الزمان ، وجدنا أن حياتنا الواعية نفسها لا تبدأ إلا فى اللحظة التى نتجاوز فيها الإدراك الحسى (وهو الفعل الذى يتم فى الحاضر) ، لكى نتجه بأبصارنا إما نحو الخلف أو نحو الأمام ، أعنى إما نحو « الماضى » أو نحو « المستقبل » . بل إن الإدراك الحسى نفسه ما كان ليحمل أى معنى بالنسبة إلينا ، لو لم يكن كل موضوع حسى ندركه هو بمثابة نقطة تلاق لفكرتنا عن الماضى وفكرتنا عن المستقبل ، أعنى ملتقى لذكرياتنا وإمكانياتنا .

---

(١) عن « الوجودية » مقال لديديه أنزيو ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ، « مجلة

أبعد من ذلك ، فيقولون إن تأثر تفكيرنا بوضعنا الاجتماعى لا يعنى بالضرورة أن يجىء هذا التفكير خاطئاً ، وإنما قد يكون هذا التأثر نفسه سبيلنا إلى بلوغ حَدْس سياسىّ صائب ومن هنا فإن العنصر الهامّ فى مفهوم « الإيديولوجيا » عندهم إنما هو هذا الكشف الجوهرىّ لوجود علاقة وثيقة بين التفكير السياسىّ والحياة الاجتماعية . ولعل هذا ما عناه ماركس حينما قال عبارته المشهورة : « إنه ليس وَعْى الناس هو الذى يُحدِّد وجودَهم ، بل — على العكس — إن وجودهم الاجتماعىّ هو الذى يحدّد وعيهم[1] . » فالنظرية دالّة Function للواقع ، وهى تؤدى إلى تحقيق ضرب خاص من الفعل ، يجىء فيعدِّل من الواقع ، أو هو قد يفشل ، فيضطرنا إلى معاودة النظر فى النظرية السابقة . والتغيّر الذى يطرأ على الموقف الحالىّ نتيجة للفِعْل ، لا بُدَّ — بدوره — أن يُولِّدَ نظرية جديدة .

... من هذا كله يتبيَّن لنا أن « الإيديولوجيات » هى « مركّبات أفكار » توجّه النشاط نحو المحافظة على بقاء النظام القائم . وقد يقع فى ظننا أن الأفكار تتولد بطريقة تلقائية ، ولكن الحقيقة — فيما يقول كارل مانهايم — إن الأفكار تتوقف توقفاً تاما على السياق التاريخىّ والاجتماعى . وتبعاً لذلك ، فإنه ليس المهمّ أنْ نعمد إلى دراسة الفكر المجرَّد ، أو العقل الخالص ، بل المهمّ بالأحرى أن نقف على الظروف الاجتماعية الفعلية التى عملت على ظهور هذا التفكير أو ذلك الإنتاج العقلىّ . وإذا كان من الحق أننا ننتسب إلى جماعة بعينها ، فما ذلك لمجرَّد أننا وُلِدْنا فى كَنَفِها ، أو لمجرَّد أننا ندين بالطاعة والولاء لها ، أو لمجرَّد أننا حريصون على التمسُّك بها والدفاع عنها ، وإنما بالأحرى لأننا نرى العالم وما فيه من أشياء على نحو ما تراه تلك الجماعة ، أعنى أننا نستخدم فى إدراكه نفس المعانى أو الدلالات التى تستخدمها تلك الجماعة فى إدراكه[2] .

والواقع أن أى مفهوم جزئى ، بل أى معنى خاص ، إنما ينطوى على « بَلْورة » لخبرات جماعة بعينها ، ومن هذه الناحية قد يكون أهَم شىء يمكن أن نعرفه عن هذا الشخص أو ذاك ، إنما هو تلك الأمور التى يَعُدُّها طبيعيَّة عاديةً ، أو تلك المسائل التى يُسلِّم بها ضمْنا دونَ أدنى فحص أو مناقشة . وبالمثل قد يكون أكثر الحقائق أهمية وأوّلية بالنسبة إلى أية جماعة ، إنما هى على وجه التحديد تلك الوقائع التى تعَدُّها الجماعة سويَّةً مألوفة ، أو

---

(١) K. Marx « A Contribution to the Critique of PoliticalEconomy. », Trans. 12